إلى أين بعد النصر؟

جون تشالكرافت

شَهِدت الأسابيعُ الماضيةُ فصلاً دمويّاً جديدًا في التاريخ المديد الذي تخوضه المقاومةُ ضدّ نزعة التوسُّع الإسرائيلية وضدّ الهيمنة الأميركية «ذاتِ الأطيافِ الشاملة» على الشرق الأوسط.

والحال أنّ الهجومَ على لبنان في ١٢ تموز (يوليو) سبق أن خُطِّطَ له في كلٍّ من تل أبيب وواشنطن دي. سي. فالإسرائيليون، الذين وَصَفوا الغزوَ بأنّه حربٌ ضروريةٌ لمواجهةِ خطرٍ وجوديّ يتهدَّدُهم، كانوا في واقع الأمر يسعَوْن إلى إلغاء حزب اللّه انتقامًا من انسحابهم الذليل من لبنان في أيار (مايو) ٢٠٠٠ أولاً، ولكنْ ـ ثانيًا وأساسًا ـ من أجل إزاحةِ عائقٍ في وجه استعمارهم في الأراضي الفلسطينية المحتلّة عامَ ١٩٦٧. بل إنّ تضامُنَ حزب اللّه مع الشعب الفلسطيني قد جرى تأكيدُه في صميم «الذريعة» التي نَشبتِ الحربُ بسببها: ذلك أنّ أَسْرَ حزبِ اللّه لجنديَيْن إسرائيليَيْن كان يَهْدف، في ما يَهْدف، إلى تخفيف الضغط الإسرائيلي على الفلسطينيين المحاصَرين، ولاسيّما في غزة.

أما البيت الأبيض فكان، من جهته، سعيدًا بمنح إسرائيل بضعةَ أسابيع لكي تحقِّق أهدافَها. وكان سهلاً إقناعُ الجمهور الأميركي بضرورة القيام بـ «ضربةٍ جراحيةٍ» ضدّ «الإرهابيين المُلْتحين» وكان ممكنًا أيضًا مواصلةُ تصوير «ثورة الأرز» في لبنان، أمام ذلك الجمهور الأميركي، بوصفها نجاحًا لسياسة الرئيس بوش الخارجية وقد افتَرضَتْ واشنطن أنّ الهجوم الإسرائيلي سيَلْقى استحسانًا هادئًا من «المسيحيين» اللبنانيين، وسيثبِّت لبنانَ دولةً تابعةً للولايات المتحدة. والأهمّ أنّ إلغاءَ حزب اللّه سيُضْعف رصيدًا إيرانيّاً إستراتيجيّاً في التحضير لصدِّ هجومٍ أميركيٍّ مخطَّطٍ له على إيران ـ التي هي «الجائزةُ الكبرى» في الخليج الفارسي الغنيّ بالنفط وذهب التفكيرُ الأميركيُّ إلى أنّه ما دام الإسرائيليون يَمْضُون في «عملهم» بسرعةٍ لا تَرْحم، فإنّ السقوطَ الأميركي في المنطقة ـ وخاصةً على مستوى القوات الأميركية في العراق ـ سيكون أقلّ، وسيُمْكن حصرُ شكاوى الأوروبيين وغيرهم

غير أنّ هذه الخطط فَشِلَتْ بسبب المقاومة العسكرية التي أَظْهرها حزبُ اللّه للغزو الإسرائيلي فرجالُ العصابات المنظَّمون، والملتزِمون، والحانِقون بفنون التكتيك، والمسلَّحون بأسلحةٍ جيّدةٍ نسبيّاً، صَمَدوا في مواجهةِ أقوى جيوش العالم وأكثرها تفوُّقًا من الناحية التكنولوجية. وعَجَزتْ إسرائيلُ عن إحرازِ أيّ تقدُّمٍ ملموسٍ في نزعِ سلاح حزب اللّه وتدميرِه، وتكبَّدتْ عددًا كبيرًا لم تعتدْه من القتلى في صفوف جيشها لقد وَقَعَ الإسرائيليون في مستنقع، ولم تكن الولاياتُ المتحدةُ ـ التي لم يُعْجبها الفشلُ الإسرائيلي ولا العراقُ الملتهبُ ـ على استعدادٍ للسماح بذلك وبتغييرِ كلّ تفكيرها الذي كان وراء الحرب الأخيرة. ولِذا أعطى قرارُ الأمم المتحدة المتأخّر (رقم ١٧٠١) الإسرائيليين الحجةَ للانسحاب وإعادةِ التقويم ولكنْ لمّا كان غيرَ مرجَّحٍ أن يُنْزَعَ سلاحُ حزب اللّه بعد نجاحه السياسي والعسكري الكبير، فإنّ الأهدافَ الأساسيةَ للولايات المتحدة وإسرائيل لم تتحقّق.

فالانسحابُ الإسرائيلي من لبنان لن يسهِّل بأيِّ حالٍ من الأحوال التوسُّعَ الإسرائيليَّ في الأراضي الفلسطينية كما أنّ إيران والمقاومةَ العراقية وسوريا قد ازدادتْ جرأةً على الأرجح، لهذا السبب أو ذاك. ثم إنّ «زبائنَ» الولايات المتحدة في لبنان وفي غيرِه من بلدان العالم العربي يعانون أزمةً متفاقمةً في شرعيّتهم، بعد أن بُثَّتْ صورُ المجازر الإسرائيلية في كلّ بيتٍ عربيٍّ من دير الزُّور إلى مرّاكش بل إنّ الخططَ الأميركية لمهاجمة إيران يمكن أن تكون قد تراجعتْ هي الأُخرى.

لكنْ برغم الوهج الورديّ للنصر والتضامن فإنّ المدنيين اللبنانيين، ولاسيّما الشيعة، هم الذين يَدْفعون الثمنَ الأبهظَ

غابرييلا بوليسوڤا

حرّافة في الضاحية

فهؤلاء الذين عادوا عودةً شجاعةً، وبمئاتِ الآلاف، يواجهون الآن مهمةً طويلةً وبائسةً تتمثّل في إعادةِ ترميم عائلاتهم وقراهم وضواحيهم المدمَّرة. كما أنّ أحداثَ الأيام الماضية لم تحلّ أيّاً من المشكلات الأساسية. فكيف يُبْنى جيشٌ لبنانيٌّ قادرٌ فعلاً على حماية لبنان من إسرائيل؟ وكيف يتمّ تجنُّبُ أن يصبح لبنانُ بيْدقًا في يد الولايات المتحدة أو إيران أو سوريا؟ وكيف يجري خلقُ ائتلافٍ يتّسعُ للانزياحات السياسية الأخيرة ويَحْفظُ الوحدةَ الوطنيةَ الهشّة؟ وكيف يتمّ جذبُ الاستثمارات من أجل إعادة البناء، من دون رهنِ البلاد ـ من جديد ـ للمصارف الأجنبية؟ وكيف يَنْخرط لبنانُ في إعادة إعمارٍ تُشرِك وتفيدُ غالبيةَ الناس، لا النخبةَ المعولَمَةَ وحدها؟ وكيف تتمّ حمايةُ كلّ العاملين على إعادةِ صياغةِ لبنان، بمن في ذلك السوريون والسيريلانكيون والسودانيون، وهلمجرّاً؟

في رأيي أنّ شتى الإجراءات العسكرية والسياسية اللازمة للدفاع عن لبنان وعن وحدته قابلةٌ للتحقُّق ـ وهذا أقلُّ ما يُقال في هذا الشأن غير أنّ البلدانَ الساعيةَ إلى جذب الاستثمارات ضِمْنَ شروطِ العولمة الأُحادية النيوليبرالية ستظلّ عرضةً لأزماتٍ اجتماعيةٍ أساسيةٍ يبقى حلُّها مرهونًا بقيام الثورة الحقيقية

بيروت

د. جون تشالكرافت

أستاذ التاريخ وسياسات الإمبراطورية / الإمبريالية في مدرسة لندن للاقتصاد (**London School of Economics**) وقد كَتَبَ هذه المقالة خصّيصًا لـ الآداب أثناء زيارته إلى لبنان تضامنًا مع شعبه، وترجمها رئيس التحرير